

تم أدب صالح بن جنان بفضل منشى الروح ومجري الرياح والملك الوهاب الفتح
وذلك في سلخ شهر ذي القعدة سنة ١٠٨٦ والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

تنبيه

لم نقف على ترجمة صاحب هذا الكتاب فيما بين أيدينا من الكتب وإنما رأينا له ذكراً
في كتاب العلم للحافظ بن عبد البر. حيث قال أحسن ما قيل في الصمت ما ينسب
لعبد الله بن طاهر وهو:

أقلل كلامك واستعد من شره ... إن البلاء ببعضه مقرون

واحفظ لسانك واحفظ من عيه ... حتى يكون كأنه مسجون

وكل فزادك باللسان وقل له ... إن الكلام عليكما موزون

فرناه وليك محكماً في قلة ... إن البلاغة في القليل تكون

وقد قيل أن هذا الشعر لصالح بن جنان والله أعلم وهو أشبه بمذهب صالح وطبعه
اهـ.

الحكومات وشرائعها

عرف الإنسان منذ نشأته أن الاتحاد ذريعة لنيل سعادته ووسيلة للحصول على مراده
فقال بالقسر إلى الاجتماع فكاتفأ على ما يتعلق بأمر معيشته من هجوع وترحال
ومأكل ومشرب ودعاه إلى ذلك داعي العجز والتقصير للقيام بمقتضيات حياة المدنية
كالزراعة والصناعة على اختلاف أصنافها والعلم على تعدد أنواعه فكان اجتماعه
قسرياً ضرورياً لراحته ورفاهته عبرت عنه الحكماء بقولها الإنسان مدني بالطبع أي لا
بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم.

ولما كان الإنسان ميلاً بالطبع إلى الظلم والعدوان كان من الضروري لاجتماعه وجوب وجود وازع يدفع بعض الناس عن بعض ويهتّم بإصلاح شؤونهم وأحوالهم ومعيتهم والا تضعفت دعائم العمران ووهت أسبابه وقواعده لأنه ليس من الممكن عقلياً اجتماع أفراد بدون اتفاق فيما بينهم على كيفية نيل المعاش واقتسام الرزق ولا يمكن ذلك الاتفاق إلا بوجود وازع عادل يحدد حقوق كل فرد وواجباته طبقاً لقواعد أدبية واجتماعية تعرف الآن بالشرعية وهي لئن الآن اختلفت مبدأ باختلاف العادة والمكان لا تختلف غاية وهي المحافظة على حقوق الإنسان لقيام اجتمع البشري كما يقول العلامة ابن خلدون في مقدمته: ولكي يتم للإنسان الاجتماع لا بد له من سنن يكفله ولا بد من العدل في هذه السنن أي مراعاة مصالح الجمهور المتبادلة ولا بد من احترامها كذلك والا انقضت عروة الاجتماع وتداعت دعائمه: ولكن لما كان الإنسان كثيراً ما لا يسلك م نفسه الطرق المثلى المؤدية إلى ذلك إما عن عتوا أو غرور أو عن جهل وذهول كان لا بد له من إقامة قوة يناط بها المحافظة على المقرر من السنن والاقتصاص ممن يجحد عن جادتها والا آل به الحال إلى الفوضى أي لا بد له من وازع يكون من إذا لم يمكن أن يكون سواه يدفع عدوان بعضه عن بعض ويهتّم بإصلاح شؤونهم اهـ.

فهيكدا نشأت الشرائع والحكومات ولم تكن الأولى بداءة بدء سوى مجموعة عوائد وآداب بعضها ما فرضته الأديان وأخرى ما قضت الأحوال بإتباعه عفواً فأخذت ترتقي بعدئذ بالانقضاء الإنسان إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن كما أنه لا ينكر تغيير الأحكام بتغير الأزمان.

فما الشرعية سوى خطة تسري الحكومة بموجبها لتحدد حقوق الجميع وهي مسئولة بالطبع لدى هذا النظام عما تفعله بالنظر إلى رعاياها كما أن أرباب العائلات

مستولون أمام نظامهم عما يفعلون بالنظر إلى عائلاتهم لا بل تبعت الحكومة أعم من
مواجب أرباب العائلات لأن رب العائلة تطالبه أسرته وهو مسؤولة لها ولنتمته في
حين تكالب الرعية الحكومة والرعية مجموع أسر عديدة فتكون مسؤولة لها وللوطن
كما قال أرسطو: العالم بستان سياحه الدولة والدولة سلطان تحيا به السنة والسنة
سياسة يسوسها الملك والملك نظام يعضده الجنود والجند أعوان يكفلهم المال والمال
رزق تجمععه الرعية والرعية عبيد يكفهم العدل والعدل مألوف وبه قوام العالم.

فنتج إذن لما تقدم أن نشوء الشرائع والحكومات كان قديماً بقدم أول اجتماع نظراً
لما في طبيعة الإنسان الحيوانية من الأثرة والعدوان التي تحول دون اجتماعه وتآلفه لولا
حاكم عادل يحد لكل حقوقه حسب الشرائع المفروضة فتاريخ الشرائع مرتبط بتاريخ
الحكومات وتاريخ الاجتماع البشري كل ارتباط أي لم يكن الاجتماع دون
الحكومات لتحفظ كيانه وتذب عن حماه وتدفع عن حوزته ولم تكن الحكومات دون
الشرائع لتسير بموجبها فتحدد بالقسط والسوية حدود الجميع لم تكن الشريعة بدون
حكمة تسنها ولم تكن الحكومة بدون جمعية تحكمها كما قال الموبدان بن بهرم في
حكاية البرم التي نقلها المسعودي الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة ولا قوام بالشريعة إلا
بالمالك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبل للمال إلا
بالعمارة ولا سبل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الحلقة نصبه الله
وبه قوام العالم. اهـ.

فلنا الشريعة لم تكن بادئ بدء سوى مجموعة آداب وعوائد قضت الأحوال بإتباعها
عفواً ثم أخذت ترتقي بارتقاء الإنسان إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن من الرقي
والفلاح فهي إذاً مرآة صافية يعكس عليها مركز الأمة في الجسم الاجتماعي كما
يعكس عليها أيضاً من عوائدها وأخلاقها ما يظهر لنا تأخرها أو تقدمها. فمن اطلع

على شرائع الفرس واليونان قديماً وأهل سومطرة مثلاً في القرن الماضي ووقف على ما جوزته شرائعهم من سلخ جلد انجريم بالقتل وسحقه بين صخرتين أو طرد حياً في الرماد حتى يموت تحته خنقاً إلى غير ذلك من الفظائع الحيوانية كان يلقوا انجريم إلى السباع أو يمزقوا جسده بالكاليب أو يحرقوه حياً أو يشدوا أطرافه إلى أربع أفراس فيمزق انجريم بالقتل إرباً إرباً عرف حتى المعرفة فظاظة طبائعهم وقسوة قلوبهم وغلظة أكبادهم وحكم حكماً باتاً على تلك الأمم بسكرة الجهل وتسكعها في مهامه الحمول لأن قساوتها وانحطاط أخلاقها وعواندما كانت تتجلى في شرائعها بأجلى بيان على بقائها تحت وفر الجهل ووراء ظل الارتقاء.

وإذا رجعنا فوقنا على كثير من شرائع أمم أوروبا المتعددة الآن كإنكلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها من أمم العالم المتمدن كأميركا وخصوصاً شرائع مملكتنا العثمانية نحكم بالطبع على وجوب رقي تلك الأمم لما ينجلي منعكاً على مرآة شرائعهم الصافية من حسن العوائد وطيب الأخلاق ما يضطرنا أن نقول بارتقاء تلك الأمم طبقاً لارتقاء شرائعها.

ولكن لماذا لا يصدق هذا الحكم على أمنا العثمانية وشريعتها من أحسن الشرائع ونظامها من أقوم المنظمات؟ لماذا لا يصدق علينا هذا الحكم بل لماذا نحن في تأخر؟ إلا أننا من جنسية غير جنسيتهم ونحن ذرية الذين اشتهروا بالصناعة والتجارة والحماسة والشجاعة والفتوحات والفصاحة والمعارف والحكمة؟ أم لأنهم أقرب منا استعداداً للارتقاء ونحن من القوم الذين أفاض الله عليهم من بركات الحجي ما أقام لهم الاندماج في سلك الرتبة الأولى بين مراتب بني آدم؟ كلا ليست هذه من الأسباب التي أودت بأمنا بعد أن كان لها من بسطة الملك واستفحال الكلمة ونفوذ الشوكة ما لم تصل إليه أمة من أمم أوروبا الراقية. ولكن هو ضعف الإدارة في الأعمال وعدم

تنفيذنا الأوامر الشرعية والقوانين المفروضة وقلة رجالنا الأمناء المحلصين كانت من جملة أمراضنا الاجتماعية فقلدنا كما قيل كباثر الأعمال لصغائر العمال أي وضعنا الشيء في غير موضعه فأصبح الرائي ظالماً والقاضي محايياً والجندي خائناً وأمر الشريعة لغوً لا يعمل به ولا ينفذ فلا بدع إذا فسدت الأمة بفساد الحكومة التي هي بمنزلة الرأس منها وقد أجاد القائل:

وإذا رأيت الرأس وهو مهشم ... أيقنت منه فشم الأعضاء

وهكذا يستتج بأن سلامة الوجود موقوف على سلامة النظام وسلام الناظم يكفله حسن العمل وذلك مترتب بالطبع على إدارة مستقيمة حسنة تصدر عن رجال محلصين أمناء لأن إدارة ميزان كل حكومة وقوام كل مملكة كما أن الرجال سياج الأمة يذوبون عن حوضها ويدروون طوارثها فيذهبون بها من غمرات الخلل إلى سواحل النظام والسعة كما قال أبو شروان الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل بإصلاح العمال واستقامتهم وتنفيذهم أوامر الشريعة المفروضة من الله.

فإذا كانت شريعتنا من أقوم الشرائع ونظامنا من أحسن النظمات وحكومتنا لا تعمل به فهو لغو ومعتبر حين تسيير بموجبه الأحكام فتحدد بالسوية حقوق الكل وواجباتهم. التعليم إجباري بملكنا المحروسة ولكن من يرد عليه هذا الأمر ولا يسقط في يد ومن يعمل به من الحكومة؟ توسيع الطرق وتطهير الشوارع وتسهيل أسباب النقل ومراقبة أسعار ضروريات الإنسان من واجبات المجلس البلدي في كل ولاية مثلاً ولكن هل تسيير أعضاؤه على خطة وواجباتهم فتحافظ على راحة الشعب ورفاهته وتوسع الطرق وتطهر الشوارع حتى قال بما أحدهم مرة إن أهالي دمشق تود لو تزرع الشجار في شوارعها لتكثر الأمطار فتتخلص من الغبار الذي لا يمكنه غير مياه السماء. شريعتنا

تحرم الرشوة بالطبع فتقول ما حرم أخذه حرم إعطاؤه ولكن العاملين بما قلبوا الآية فحللوا الأخذ والعطاء. التصرف على الرعية - كما ورد في القانون - منوط بالصلحة فيلزم أن يولى المناصب أهلها ولا يكلف الناس ما لا يحتمل ويدفع الظالم عن المظلوم ويؤمن السبل ويدفع الأذى ولكننا نحن نقلد الوظائف لمن لا يصلح لها فنضع الشيء بغير موضعه ونساعد الظالم على المظلوم وإن كنا ندرى بأن ذلك مبدأ الحلل. وخلاصة القول أن شريعتنا من أحسن الشرائع وأقومها ولر نعمل بموجبها ولكن فساداً طرأ على أفكار العاملين بها فغيروا المعاني وضحفوا الألفاظ وحرفوها طبقاً لمآزهم ومقاصدهم. الكلية بيروت:

حبيب جرجي كحالة

النحام ومرادفاته

1 تهيد

أصعب ما في اللغة العربية تحقيق الألفاظ العلمية ولا سيما ما يتعلق منها بعلم المواليد فترى أغلب المعاجم تحبب هذا البحث ولا خبط عشواء. ولهذا يحسن بالعلماء أن يحققوا تلك الألفاظ ويتبعوها تبعاً علمياً محضاً حتى يصرح اللبني عن الرغبة ويعول عليها الكتاب من مؤلفين ومعربين ولا يقوا ساترين في الوعث فيكابدون من العناية والاجهد الأمرين. ومن جملة الألفاظ التي تحتاج إلى تحقيق كلمة نحام من الطير وما نحن نثبت ما يزيل الشك في هذا الباب فنقول.

2 النحام في كتب العربية

قال في حياة الحيوان: النحام طائر على حلقة الإوز الواحدة نحامة. يكون آحاداً وأزواجاً في الطيران وإذا أرادت الميت اجتمعت رفقاً، فذكوره تنام وإناته لا تنام وتعد لها مبيت فإذا نفرت من واحد ذهبت إلى الآخر. اهـ المقصود من إيراده -